

مقتطفة من كتاب: دليل الطالب الذكي في: علم النفس انطلاقاً من " قصر العينى "



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2018/12/01

السنة الثانية عشرة - العدد: 4109

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

مقدمة:

امتدادا لما أشرنا إليه سابقا، وبإصرار العناد والأمل: تم تخصيص اليوم "السبت" لمقتطفات من كتاباتي السابقة التي لها علاقة دالة بالفروض التي تعتبر إرهاصات أو أساس هذا الفكر الدائم النمو والتطوير.

مقتطف من كتاب:

دليل الطالب الذكي في: علم النفس

انطلاقاً من "قصر العينى" (1)

.....

المعلم: دعنا نعود ونؤكد نقطة الانطلاق، فأنت طالب الآن، ثم طبيب بإذن الله بعد بضع سنوات، وممارسة الطب كفن سوف تضطرك لأن تتظر في نفسك والناس المحتاجين إليك نظرة أعمق وأكثر تكاملاً، وهنا سنتذكر - كحرفى ماهر - بعض ما يعينك فى عملك، أو ستلجأ كفن (2) عالم إلى الاستزادة فى المعرفة مما فاتك طالبا .

الطالب: أراك تتحدث عن الطب كفن وعلم وحرفة فماذا؟ وأين مكان الطب النفسى من ذلك؟

المعلم: كان الطب دائما حرفة أساساً، تغلب عليها الأسس الفنية وحذق الممارس، وكان التطبيب اسمه فن التطبيب أما الطب النفسى فكان اسمه "فن المجاذيب" (3)، وإعطاء الدواء اسمه "فن المداواة"، وربط الكسور والجروح اسمه فن التعصيب، ثم تدرج الأمر فأصبحت الممارسة الطبية لها أصولها العلمية بعد ان عرفت الأسباب أكثر فأكثر، ولما زادت آلات الفحص، قل دور الطبيب كحرفى ماهر فيما عدا دوره الفنى فى الجراحة بالذات، أما الطب النفسى فإن أسباب الاضطرابات فيه مازالت مجهولة، وبالتالي فهو مازال فنا وحرفة أكثر منه علما محددًا، جميعا من الناحية التاريخية، فقد كانت أغلب الأمراض قديما تُعزى إلى اضطرابات المزاج أو لبس

كان الطب دائما حرفة أساساً، تغلب عليها الأسس الفنية وحذق الممارس، وكان التطبيب اسمه فن التطبيب أما الطب النفسى فكان اسمه "فن المجاذيب" ، وإعطاء الدواء اسمه "فن المداواة"، وربط الكسور والجروح اسمه فن التعصيب

أما الطب النفسى فإن أسباب الاضطرابات فيه مازالت مجهولة، وبالتالي فهو مازال فنا وحرفة أكثر منه علما محددًا

الأرواح، وكانت تعالج بتأثير إنسان على إنسان سواء كان المؤثر شيخا طيبا أو شخصا واصلا أو محتالا ذكيا، أو بمحاولة طرد الأرواح الشريرة بالضرب أو النفي، ثم تفرعت من هذه "الكومة المرضية الأم" سائر التخصصات الطبية الأخرى حين عُرِفَت أسبابها أو لا بأول، أما ما بقي منها تغلب على أبعاده الجهل ... فهو مازال يعد بشكل ما: ضمن الطب النفسى.

الطالب: هل معنى ذلك أن بقاء الطب النفسى كفرع مستقل دليل جهلنا بالأسباب؟

المعلم: فى الواقع أن هذا صحيح إلى حد ما، فمازالت كمية الجهل حول طبيعة المرض النفسى وأسبابه وطريقة حدوثه تيرر القول أن المرض النفسى يتضمن كثيرا من المجاهيل التى تُلزم المشتغل به الاعتماد على الفروض العاملة والحدق الشخصى أكثر من اعتماده على المعلومات المحددة اليقينية.

الطالب: ألا يبرر كل هذا الجهل الذى يحيط بالعلوم النفسية معارضة الأطباء الاخرين فى تدريس علم النفس والطب النفسى لنا؟

المعلم: نعم يبرره، ولكنه تبرير غير مسئول و ضد حركة التاريخ، إن المناطق المجهولة هى الأكثر أحقية بالاستكشاف، وبالتالي أحقية بالدراسة وبذل الجهد...، ونحن الأطباء النفسىون نساهم فى إثارة الناس علينا حين ندعى لأنفسنا حجما أكبر من حقيقتنا، فالآخرون بصدقهم وحسهم يشعرون باهتزاز موقفنا وعدم تناسب علو صوتنا مع ضآلة معارفنا، ولهم الحق مبدئيا، ولكنهم يصبحون أحق لو أنهم يأخذون بيدنا، ولن يفعلوا ذلك إلا إذا ظهرنا أمامهم بحجنا المتواضع ونحن نواصل بما نملك من جهد وإصرار وسعى إلى مزيد من المعرفة والإسهام معا فى مسيرة الإنسان، إن طالب الطب ليس غنيمة نتصارع لاقتسامها، ولكنه أمانة يساعد بعضنا بعضا فى أداء حقها.

الطالب: ولكن أنا مالى وهذه المعركة بينكم؟ إننى أريد معلومات أكيدة أحفظها وأسمّعها وأنجح بها وأرتاح.

المعلم: وهذه هى الخطيئة الكبرى فى التعليم الجامعى عامة، وتعليم الطب خاصة وتعليم الطب النفسى بشكل أشد تخصيصا، وهى ألا نقدم لك إلا المعلومات الأكيدة، فنتصور بدورك أن كل ما بين يديك وتحت ناظريك هو حقائق أكيدة، فنخدعك، ونحرمك نعمة التفكير ونُقَوِّلبك، ونزيد "الكاسيتات" البشرية نسخة سرعان ما تصدأ، إن وظيفة التعليم هى فى الإلمام بالمعلومات التى تم اكتشافها، وفتح الأبواب لما بعدها، وفخر العالم وشرفه هو أن يدرك حجم ما يجهل، وألا يتعصب أو يتشنج لما يعلم، لأنه على يقين من طبيعته المؤقتة .

الطالب: إذن فهل يعنى هذا أن نزيد ساعات ومقررات دراسة علم النفس والطب النفسى لطالب الطب، حتى ولو كان موقف هذين العلمين بهذه الدرجة من عدم التحديد وعدم الثبات، بل دعنى أقول: والجهل؟

المعلم: إذا استمر الأمر على تدريس علم النفس بالطريقة السائدة، بمعنى أن نحشر فى عقل الطالب تعريفات صعبة لبداهيات سهلة فلا جدوى من الزيادة بل لعل العكس هو الأولى.

وكذلك إذا استمر تدريس الطب النفسى والأمراض النفسية يركز على تقديم معلومات تعرفها آيه ربة منزل أمية أو أى شاويش فى نقطة بوليس، فلا داعى للخلاف على ساعات التدريس وضرورة الامتحان، لأنه ماذا يفيدك أن تعرف أن من يرى خيالات وأشباح لا يراها غيره فهو مخرف أو مجنون؟؟ وماذا يفيدك لو كان اسمها هلاوس أو تهلسات، وأى جديد فى أن من يعتقد أنه هتلر أو جمال عبد الناصر أو المهدي المنتظر فهو يهذى أو ذو عقل مضطرب؟ ألا يعلم كل ذلك أى مخبر فى

الطب النفسى هو أبو فروع الطب جميعا من الناحية التاريخية، فقد كانت ألعلاج الأمراض قديما تُعزى إلى اضطرابات المزاج أو لبس الأرواح، وكانت تعالج بتأثير إنسان على إنسان سواء كان المؤثر شيخا طيبا أو شخصا واصلا أو محتالا ذكيا، أو بمحاولة طرد الأرواح الشريرة بالضرب أو النفي

أن المرض النفسى يتضمن كثيرا من المجاهيل التى تُلزم المشتغل به الاعتماد على الفروض العاملة والحدق الشخصى أكثر من اعتماده على المعلومات المحددة اليقينية

إن المناطق المجهولة هى الأكثر أحقية بالاستكشاف، وبالتالي أحقية بالدراسة وبذل الجهد...

الشارع يمسك متشردا مهلهل الثياب يكلم نفسه؟؟

إن السبيل الحقيقي لإعادة النظر في تدريس هذين العلمين هو أن نعطي لك ما يفيدك أنت في فهم نفسك والآخرين، فتطلق فيك قوى النمو الإبداع، وأن نجعلك تلم بما يفيدك كطبيب سواء في معرفة نفوس مرضاك أم في شحذ ملكاتك الفنية الإنسانية التي بوساطتها تصبح أكثر نجاحا وأعم نفعاً، نعلمك كيف تتعامل مع مرضاك من واقع معرفتك نفسك واحتياجك، ونفوسهم وظروفهم واحتياجهم إلى المعلومات الأولية عن طبيعة النفس ثم عن العلاجات، وهذا مما أحاول تقديم إطار عام له في هذا العمل، ثم إنني أعتقد أن الزملاء الراضين هم أول من سيدعوننا لزيادة ساعات التدريس لو قدمنا ما يفيد، كما أن زملاءك الطلبة المنتفعين هم أول من سيثورون على أى إعاقة تحول دون منفعتهم.

الطالب: ما هذه الخطبة العصماء، هل تتصور أن فرصة الحوار بيننا هكذا هي السبيل لتحقيق هذه الثورة التي وصلنتى من هذه الخطبة.

المعلم: أنا متفائل مزمن، وتفاؤلى يلزمنى أن أملاً كل ثانية بعمل يسهم في تحقيق ما أراه الأفضل والأصدق وأن أخاطب كل واحد، وخاصة الأصغر فالأصغر باعتبار أنى اسلمه الأمانة.

الطالب: إعمل معروفاً أنا لست حمل هذا الكلام ومع ذلك فأنا فرح به بدرجة ما، لا أعرف لماذا؟ ولكن إذا استمر الأمر كما هو الآن، فأهون الأمور هو أن يستمر تدريس علم النفس بنفس حجمه المتواضع كما هو، مع نفس الرفض والتهوين، وإن تَغَيَّرنا نحن: فلا بد أن ما حولنا سيتغير بالضرورة وطبيعة الأشياء.

المعلم: هذا صحيح: لأنك شاب، ولأنك طالب علم ومعرفة، ولأنك ذكى

الطالب: لا أكاد أصدق أن كل هذا يمكن أن يخطر على بالك عن واحد مثلى ونحن بصدد الحديث فى علم ثانوى يسمى علم النفس

المعلم: أهكذا تقول ثانوى ولا تخشى أن يقل حماسى أو يفتر تفاؤلى

الطالب: أنا آسف، لكن دعنى أسأل سؤالاً مبدئياً عن "ماهية النفس"، قبل أن نخوض فى الحديث عن "علم" يتعلق بها؟

المعلم: تختلف الآراء فى تعريف النفس بدرجة لانصح معها بأن نتعرض لتعريفها أصلاً، ذلك لأنها:

1- لو اعتُبرَت مرادفة للفظ "الروح" كما كانت قديماً لكانت من ألغز الأمور، بل قد يجب تركها جانباً لخالقها، بل قد تصبح دراستها حراماً وعصيانياً والعياذ بالله!! (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)

2- ولو اعتبرت مرادفة لظاهر أفعالها وسلوكها، لتضاءلت قيمة الإنسان وماهيته حتى أصبح كياناً مسطحاً لا نعرف منه إلا ظاهر حركاته ومنطوق كلامه، والإنسان أعقد من ذلك وأعمق وأصعب معاً.

والأفضل لك - وأنت الذكى - أن تكتفى بأن تسأل: ما إذا كان المقصود من هذه الكلمة "النفس" يمكن إرجاعه إلى نشاط عضو بذاته، فأستطيع هنا أن أعرفها لك بقولى:

"إن النفس هي النشاط الكلى للمخ بوجه خاص (ويسرى هذا أكثر على الإنسان) وإن كان ذلك

نحن الأطباء النفسيون نساهم
فى إثارة الناس علينا حين
ندعى لأنفسنا حجماً أكبر من
حقيقتنا، فالآخرون بصدقهم
وحسبهم يشعرون باهتزاز
موقفنا وعدم تناسبه علو
صوتنا مع ضآلة معارفنا

إن السبيل الحقيقي لإعادة
النظر فى تدريس هذين
العلمين هو أن نعطي لك ما
يفيدك أنت فى فهم نفسك
والآخرين، فتطلق فيك قوى
النمو الإبداع، وأن نجعلك
تلم بما يفيدك كطبيب

أنا متفائل مزمن، وتفاؤلى
يلزمنى أن أملاً كل ثانية
بعمل يسهم فى تحقيق ما
أراه الأفضل والأصدق وأن
أخاطب كل واحد، وخاصة
الأصغر فالأصغر باعتبار أنى
اسلمه الأمانة

"إن النفس هي النشاط
الكلى للمخ بوجه خاص)
ويسرى هذا أكثر على
الإنسان) وإن كان ذلك
يتضمن ويشترك مع نشاط
سائر الأعضاء جميعاً

يتضمن ويشترك مع نشاط سائر الأعضاء جميعاً".

من هذا المدخل أساساً - يمكن أن يكون لدراسة علم النفس بُعداً واقعي متواضع يجذب الطالب ويسهم في إعادة تخطيط المناهج، وبهذا تصبح دراسة النفس بمثابة دراسة وظيفة عضو من الأعضاء كأنها تدرج تحت "علم وظائف الأعضاء"، ولكن ينبغي ألا يوحي هذا بأى مفهوم تجزيئى، حتى لا تصبح دراسة وظائف النفس وكأنها دراسة إفراز الكلى، أو تجرى دراسة الاختيار الواعى (الإرادة) والتفكير الرمزي مجرى دراسة إخراج الفضلات أو حركة الأمعاء، إن التركيز على أن النفس هي النشاط الإجمالى المعقد للمخ (4) يضيف بعداً هاماً لا غنى عنه في الدراسة من هذا المنطلق، ولكنه لا ينبغي أن يختزل ظاهرة النفس إلى مفهوم ميكانيكى مسطح (أو تشريحي محدد).

الطالب: إذن ما هي علاقة علم النفس بعلم وظائف الأعضاء (الفسولوجيا)؟

المعلم: يمكن اعتبارهما - من واقع الشرح السالف - شديدي الاقتراب بعضهما من بعض، والفرق الجوهرى هو أن محتوى دراسة علم النفس (وهو نشاط المخ الكلى) شديد التعقيد شديد التداخل، أما علم وظائف الأعضاء فهو يتناول الأعضاء عضواً عضواً بالتفصيل وبالتجزئى الممكن المناسب.

الطالب: هل معنى النشاط الكلى للمخ أنه نشاط واحد، أم أنه يعنى عدة نشاطات متألّفة، أم ماذا؟

المعلم: لا بد أن نميز بين طبيعة الظاهرة، وبين ضرورات الدراسة، "فالنفس هي النشاط الكلى للمخ" وهذه هي طبيعة الظاهرة، أم دراستها فهي تضطرنا إلى النظر إليها من زوايا متعددة، ويصبح التقسيم ليس تقسيماً للظاهرة وإنما تعدداً لزوايا الرؤية، فإذا درسنا التفكير فنحن ندرس المخ في كليته إذ يفكر، ثم نعود ندرس وظيفة التعلم وهي وظيفة كلية أيضاً تشمل التذكر وتسهم في النضج وكلا من التفكير والتعلم يرتبطان أشد الارتباط بما يدفعهما من دواعٍ وما يصاحبهما من وجدان وهكذا.

الطالب: ولكن ألا يختص كل جزء من المخ بوظيفة نفسية بذاتها، مثلما هو الحال في الأعضاء الأخرى؟ أو حتى مثلما هو الحال في الوظائف الحركية والحسية للمخ نفسه؟

المعلم: لقد حاول كثير من العلماء هذه المحاولة بغية تحديد مكان (أو مركز) Center للذاكرة، وآخر للتفكير، وثالث للعواطف، وكانت محاولات مجتهدة ومدعمة بالأدلة المبدئية النابعة من تجارب استئصال في الحيوانات، أو من مشاهدة نتائج عمليات جراحية اضطرارية لإزالة أجزاء، أو شق فصوص، في المخ، ولكن لم يثبت بأى دليل دامغ أن هذا التحديد ممكن مثلما هو ممكن في وظائف الحركة والاحساس (والإدراك Perception أحياناً)، ومثال ذلك أنه ثبت مؤخراً أن الذاكرة - مثلاً - هي ممثلة في كل أجزاء المخ وخلاياه، وليست في منطقة بذاتها، وأن إزالة جزء كبير من المخ (بما في ذلك لحاء المخ) في أى مكان لا يلغى جزءاً معيناً من الذاكرة وإن كان يحور قليلاً من تفاصيلها.. بل لقد امتد الفكر الأحدث إلا أن الذاكرة تتجاوز المخ نفسه إلى الجسد بل وإلى المحيط من حولنا، وكذلك عجز العلماء عن تحديد مركز التفكير في الفص الأمامى Frontal Lobe وهكذا.

وأخيراً فإن القول بأن الانفعال يقع في الجهاز الحرفى Limbic System وما يتعلق به من أجزاء المخ القديم إنما يشير إلى مراكز لسلوك بدائى عدوانى أو هروبى، وكذلك ما يرتبط به من تفاعلات أتونومية Autonomic ولكنه لا يشير إلى العواطف الأرقى المعقدة مثل العرفان Gratitude والمشاركة التعاطفية الانسانية Humanistic empathetic associationism إذ أن هاتين العاطفتين تستلزمان عمل المخ بأكمله.

خلاصة القول أن الوظائف النفسية الأرقى خاصة (وليست البدائية المشتركة مع الحيوانات)

أن محتوى دراسة علم النفس (وهو نشاط المخ الكلى)

شديد التعقيد شديد

التداخل، أما علم وظائف

الأعضاء فهو يتناول الأعضاء

عضواً عضواً بالتفصيل

وبالتجزئى الممكن المناسب

النفس هي النشاط الكلى

للمخ" وهذه هي طبيعة

الظاهرة، أم دراستها فهي

تضطرنا إلى النظر إليها من

زوايا متعددة، ويصبح

التقسيم ليس تقسيماً للظاهرة

وإنما تعدداً لزوايا الرؤية

كلاً من التفكير والتعلم

يرتبطان أشد الارتباط بما

يدفعهما من دواعٍ وما

يصاحبهما من وجدان

وهكذا.

الطالب: فما هو الفرق بين الوظائف النفسية البدائية والوظائف النفسية الإنسانية الأرقى ؟

المعلم:

(أنا آسف، لكن يبدو أن حوارنا يحتاج أن يكتمل، وسوف نستعيد نشرة باكر على الأقل)

[1] - المقتطف: من كتاب (دليل الطالب الذكي في علم النفس انطلاقاً من "قصر العيني") (من 64 ص إلى 69) (الطبعة الأولى 1980)، (الطبعة الثانية 2018) منشورات جمعية الطب النفسي التطوري، والكتاب موجود في الطبعة الورقية في مكتبة الأنجلو المصرية وفي منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفي مركز الرخاوي للتدريب والبحوث: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضاً حالياً بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط www.rakhawy.net

[2] - (هيبوقراط)

[3] - أقدم كتاب درس في القصر العيني عن الأمراض العقلية كان بالعربية واسمه "اسلوب الطبيب في فن المجاذيب" سنة 1309 هـ (1896 ميلادية)، تأليف سليمان أفندي نجاتي، ويقع في 162 صفحة، والكتاب يوجد بقاعة المطالعة بدار الكتب ميدان باب الخلق تحت رقم 644 طب، وقد اقتطفت بعضه في وثائق الفصل الأول (ص 17 - 19).

[4] - ثبت مؤخراً من علوم التطور والنيوروبولوجيا ما يسمح بالحديث عن عدد من الأخاخ مرتبة ترتيباً هيراركيًا تطورياً، تتبادل وتتجادل وتتكافل معاً ليظهر من هارمونيتهما السلوك الذي تتصف به ما يسمى النفس عادة دانيال دينيت (مثلاً):

Kinds of Minds Towards Understanding of
Consciousness Daniel C. Dennet 1996

الكتاب المترجم صادر عن "المكتبة الأكاديمية" ترجمة: د. مصطفى فهمي إبراهيم، نشر بعنوان: "تطور العقول!!" نحو محاولة لفهم الوعي" - القاهرة 2003

- [5] بل الأخاخ جميعاً.

إرتباط كامل النص:

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD011218.pdf

*** **

مؤسسة العلوم النفسية العربية

إحداثيات

*** **

مجلة "بصائر نفسانية" (المستجدات العربية في علوم وطب النفس)

العدد 21-22 (صيف- خريف 2018)

"علم النفس الإيجابي و النشاط البدني الترويحي"

- اشرفه على الملحن: أ.د. مرعي سلامة يونس (مصر)

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=25&controller=category&id_lang=3

www.facebook.com/BassaaerNafssania-Magazine-259758497705299/

ثبت مؤخراً أن الذاكرة - مثلاً - هي ممثلة في كل أجزاء المخ وظلايه، وليست في منطقة بذاتها، وأن إزالة جزء كبير من المخ (بما في ذلك لحاء المخ) في أي مكان لا يلغي جزءاً معيناً من الذاكرة وإن كان يحور قليلاً من تفاصيلها

لقد امتد الفكر الأحدث إلا أن الذاكرة تتجاوز المخ نفسه إلى الجسد بل وإلى المحيط من حولنا، وكذلك يحذر العلماء من تحديد مركز التفكير في الفص الأمامي